

صور من الفرد الثامن عشر

## ٢ - جا كومو كازانوفا

مربّاب مجتمع ومغامر مرع

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قضى كازانوفا صباه وفتوته الأولى محروماً من عطف والديه ،  
يجوز حياة مضطربة ، ويتقلب بين شظف العيش ورفاهته ،  
ويلقى بنفسه المضطربة إلى غمار من القهر والادمان والخلاعة ،  
ويلتمس متاع الحياة بأى الوسائل . وكان يرى الحياة لهواً ولعباً ،  
ولكن الحياة الناعمة تتطلب الرزق الوفير ، ولا بد أن يجد  
كازانوفا لنفسه وسائل الارتزاق . وكانت المقامرة يومئذ رذيلة  
المجتمع الرفيع ، ولكنها كانت أيضاً ملاذ الفاسدين من كل  
ضرب ، يلتمسون بها الرزق والثراء ؛ وكازانوفا مقاصر يارع ،  
فلم لا ينزل إلى هذا الميدان ؟ وبسبب له الحظ في المقامرة ؛ وانتظر  
في سلك المقامرين المحترفين الذين يستحلون كل الوسائل للكسب  
أو للسرقة المستترة ؛ ورأى فوق ذلك أن يتشج بثوب الخفاء ،  
وأن يحترف الشعوذة وكشف الأسرار ؛ وكانت الأذهان يومئذ  
تشذف بالظن والمجهول ، وكان كازانوفا يجيد هذا الضرب من  
الشعوذة ، وقد رأيناه يتخذ سبيلاً لتسكين نفوذه لدى صديقه  
وحاميه الجديد السيد راجادين .

وهكذا نزل كازانوفا إلى ميدان المقامرة مسلحاً بأسلحة  
العصر ، يلتمس الرزق من طريق المقامرة ، ويلتمس النفوذ من  
طريق الشعوذة ، ومن ورائه عصابة من الأصدقاء الأقوياء الذين  
يخلصهم بروائهم وظرفهم وشعوذتهم ؛ وكانت هذه الحياة في نظر  
المغامر هي المثلى ، وكان يرى المجتمع من حوله موبوءاً بوج رذيلة  
وفساداً ، ويرى الشرف والكرامة والنزاهة وكل ما إليها  
كلمات جوفاء لا يتحلى بها أرفع من يسودون المجتمع من اصراء  
وأجبار وسادة ، فكيف يطلب إليه هو أن يخضع حياته لمثل  
هذه الأباطيل ؟

وكان كازانوفا ينزل يومئذ عند السيد راجادين كما رأينا  
ويعيش منما ردهماً ، يقضى أيامه في لهو ولعب وزه وغر  
لا ينقطع ، يجوب شوارع البندقية المائية في قاربه الوثير  
ويتسقط مواعيد الحب كل مساء . وكانت المرأة عنده ظا  
الثايات ، وكان الحب فنه ومهنته التي كأنه فطر عليها بطبيعتها  
وخلاله وعواطفه ، وكان مسلحاً لهذه الغاية بأخص الصفات التي  
تدلل له غزو القلوب ، فقد كان بديع القدر والتكوين ، وسر  
الطعمة ، ذا سحر جذابة ؛ وكانت عيناه الواسعتان تشعان سحر  
وذكاء وتمهية ؛ وكان إذا شخصية جذابة ، حلو الحديث  
والشائال ، جواداً ، جم الأدب والظرف ، يضطرم حباً وجوى  
وكانت له فراسة خاصة في تفهم عقلية المرأة وميولها ؛ وكان  
ظفره الثوالي في الحب يذكي عزائمه ورغباته ، ويدفعه دائماً إلى  
البحث عن غزوات جديدة ؛ وكان يشمر شيئاً فشيئاً أن البندقية  
لم يبق فيها ما يمكن أن يغزو وأن يستمرى ، وأن ايطاليا كاه  
قد غدت تضيق بجولاته ومغامراته ؛ وكانت فرنسا تجذبه يومئذ  
بشهرتها وروعة الحياة الساطعة التي يحياها المجتمع الرفيع فيها ؛  
وسرعان ما سئحت له الفرصة لتحقيق أمنيته ، فسافر إلى باريس  
ليخوض غمار هذه الحياة الساطعة ، وكان يومئذ في  
نحو السادسة والعشرين

وكان المجتمع الفرنسي ، ينحدر يومئذ ، في عهد لويس  
الخامس عشر ، إلى نوع من الحول الباهر ، ويستمرى حياة  
عاطلة من المثل العنوية الرفيعة ، فياضه بالرغبات والشهوات  
الوضيعة ؛ وكانت دولة الثايات ، من أمثال دوباري وبومبادور  
هي صاحبة الحول والسلطان يومئذ ؛ وكان يلتف حول هذا الملك  
الخليع بلاط وضيع الخلال ، يضرب بهمتك وأحلامه للمجتمع  
الرفيع أسوأ المثل ؛ وكانت حياة هذا المجتمع - مجتمع النبلاء  
والسادة - كلها لهو ولعب وحب وغزل وفساد ورياء ؛ فالى  
هذا المجتمع الباهر الخامل معاً هبط كازانوفا يبحث عن طالع  
في عالم الحب ؛ وهناك تعرف منذ مقدمه بمواطنه الممثل الشهير  
ماريو باليتى وزوجته سلفيا ، وكافا يومئذ من أهلام مسرح  
« اللوميديا الايطالية » ؛ فملمه شيئاً من اللغة الفرنسية ، وعرفه  
بكثير من الشخصيات البارزة من رجال ونساء ؛ والمدفع كازانوفا

المهم ، وفي فجر ٢٦ يوليه سنة ١٧٥٥ ذهب مدير الشرطة مع ثلة من رجاله الى منزل كازانوفكا واعتقله ، وأخذ مصفدا الى قصر الدوجات ؛ وهناك ألقى به الى السجن المواجه في حرفة لا هواء فيها ولا نور تهرها الجرذان والحشرات المختلفة ، وتكاد لا تنخفضها تقصر عن ايواء قامته السديدة ؛ وفي الحادي والعشرين من أغسطس قضت محكمة التفتيش بادانته في التهم التي نسبت اليه ولا سيما الطعن في الدين ، وقضت بسجنه خمسة أعوام في سجن « الرصاص » الشهير ( بيومي ) وهو الذي اعتقل فيه . وقضى كازانوفكا أيامه الأولى في السجن في ذهول وبأس يكاد يعزقه النفيظ والسكد ، وكان منقطع الصلة بالعالم الخارجي ، لا يعرف شيئا عن سبب اعتقاله أو مداه ؛ وكان يؤمل باديء ذي بدء أن يسترد حريته بسرعة بمؤازرة بعض أصدقائه الأقوياء ، ولكن الشهور تعاقبت عليه دون أن ينفذ الى وكره المظلم شعاع من الأمل ، وأعقب الصيف الخريف ثم تعاقبت الفصول ، عندئذ ترك اليأس جانبا ، واستعاد عزمه وقوة نفسه ، وعول على الفرار ؛ وما زال يعمل في خفاء وصمت ، وينال الصواب والرقابة الصارمة حتى نضج مشروعه . وفي ليل اليوم الأول من نوفمبر ، فر كازانوفكا مع شريكه وجاره في السجن الأب بالي ، وذلك بأن خرقا عرش الفرقة الرصاصي ، واستطاعا بعد مجهود عنيف مروح أن يندحرا من جدران القصر الى ميدان القديس صرقص ، واستقلا زورقا حملهما في جوف الظلام بميسدا عن مواطن الخطر ؛ ولم يأمن كازانوفكا على نفسه حتى جاز حدود البندقية الى أرض بورجو دي فالزجانو المجاورة ، وبذلك أمن شر مطارديه واستطاع أن يتنفس نسيم الحرية صرة أخرى

\*\*\*

وتركت تلك الهنة في نفس كازانوفكا أعمق الأثر ، وكان قد جاوز الثلاثين يومئذ ، واستحالت لديه زهات الحدأة الى نوع من التفكير المزن ، وأخذت الأطماع والأمانى تغلب على نفسه ، وتخفض لديه زوانه المضطربة ؛ وكان هم دائما أن يفزو المجتمع الرفيع ، ولكن غزو المجتمع الرفيع يقتضي مالا ومناصرة ؛ وكان المجتمع الباريزي الذي عرفه حينئذ وتدوق فيه لذة الظفر والأمل يجذبه دائما ويلوح له بأعظم الأمانى ؛ ولهذا نراه في باريس في يناير

، هذا العالم الجديد يتدوق مسراته ، ويتابع غزواته النسائية من المثلات والراقصات وسيدات المجتمع الرفيع ؛ وهو يذكر في مذكراته التي نشير اليها فيما بعد ، طائفة من أسماء هؤلاء اللاتي ظفر بهن في تلك الفترة مثل ميمى ابنة السيدة التي نزل بعدها ، والآنسة فزيان وهي فتاة أجنبية زائرة ، ولوزون مورفي لشهيرة التي أدخلت « حريم » لويس الخامس عشر فيما بعد ، والآنسة سنت هيلير ، وسيلفيا زوجة صديقه ، وغيرهن ؛ واستطاع كازانوفكا في نفس الوقت أن يتدوق طرفا من الحياة الأدبية ، وأن يتصل ببعض كبار الأدباء والكتاب مثل فوتينيل ودلامبير والأب فوازون ومدام دي بوكاج ، وأن ينظم بعض القصائد ، وأن يترجم بعض القطع والرسائل

وعاد كازانوفكا الى البندقية ( سنة ١٧٥٣ ) وقد فاضت نفسه غبطة وزهوا بما تذوق من صنوف اللهو الرفيع ، وما حقق لنفسه من غفر في ميدان الحب ، وبدت له البندقية عندئذ ضيقة متواضعة ، بالنسبة لما رأى وشهد في باريس ؛ وذكت أطعمه وأمانيه ، وزاد غرورا وترفعا واستهتارا ، وأخذ ينظر الى هذا المجتمع البندقي من عل ، ويتصل بالكبراء والسفراء ولا سيما سفير فرنسا الأب دي برني ؛ ولم يكن كازانوفكا متحفظا في أقواله أو أعماله . فكان يطلق العنان لآرائه المتطرفة ، ويزاول الشهوذة علنا ، وكان يثير على نفسه السخط في كل ناحية ، وكانت هلائفه الفرامية موضع الحديث ومثار النقمة ؛ وكان ثمة جماعة من النبلاء والكبراء الذين يضايقهم بلسانه ومناقضاته الفرامية يترصدون الفرص لسحقه ؛ وكان من هؤلاء كبير من كبراء الدولة هو « الشيخ » كوندلر النائب العام ؛ وكان لهذا الشيخ القوي صاحبة تدعى مدام زورزي سطا عليها كازانوفكا وانزعها منه ، فاعتزم التنكيل به ، وأطلق في أثره جواسيس الشرطة يقدمون عنه التقارير القاذفة ، وفيها أنه يتصل بالسفراء الأجانب بملائق صربية ، ويخضع البسطاء بزاعمه السحرية ، ويميش على نفقة الغير ، وينوى البنات والنساء المتزوجات ، ويسخر من الدين ، وينتمى الى البناء الحر ( الماسونية ) ، وغير ذلك من التهم الخطيرة التي تسكني لادانته وإهلاكه وعلى أثر ذلك قررت محكمة التحقيق ( التفتيش ) اعتقال

يمشق الحياة الفخمة ، ويتملق عظامها العظيمة والأفافة ، ولكننا لبث دائماً ذلك المحب النهم الذى تغلب لديه النراثر الوضيعة ؛ والذى يسى إلى إرضاء شهواته الضطرمة بأى الوسائل ، وفى أى الظروف والمناسبات

وانفق كازانوقا فى باريس بضعة أعوام فى عبس طروباً خفض يفزو جميع القلوب ، وينعم بوصول السيدات والفتيات من كل ضرب ويزاول التنجيم والشعوذة ؛ وكان يتسمى عندئذ بالشفاليه دى سنجال ، أو الشفاليه سنجال دى فاروزى ، وبهر الناس بروعة مظاهره وأساليبه ، وبتقرب من الأكابر ، وينعم بالجاه والنفوذ والثراء . بيد أن هذه الحياة الباهرة كانت تنضح دائماً عن جوانب وثرات مريسة ؛ ذلك أن كازانوقا لم يكن متحوطاً فى مقامراته وعبسه ؛ ولم يكن يحجم عن أى الوسائل لاستلاب المال أو القلوب ؛ ومن ذلك أنه اشترك فى حادث تزوير أوراق مالية ، وأغرى عدداً من أكابر السيدات ، ومنهم المركبزه دورفى التى خدعها واستحوذ على قلبها ومالها بشعوذته ؛ وسطا على كثير من الأزواج والآباء ، فاستلب منهم زوجاتهم أو بناتهم ، وانصل بجماعة خطيرة من الأفاقين ولصوص المجتمع الربيع يدبر معها الخطط والشاريع الربية ؛ وذاعت هذه الوقائع والفضائح المزرية ، وكادت ترفع بالغار الجرىء إلى غمار لا تحمد عواقبها ، ولكنه آثر الهجرة مرة أخرى ، وعم عندئذ شطرهاولندة مزوداً ببقية من المال والجاه وتوصيات بعض الأكابر ونزل كازانوقا فى لاهى سنة ١٧٥٩ ؛ واستأنف هنالك حياة البئخ والطرب ، بميد سيرته التى جازها فى كل المواطن ، عاشقاً مضطرباً يحمله شهواته حينما يحمله ظفوره ، وتسقط فرائسه بين أذرعه تباعا ، ويبتز المال من هنا وهناك بكل الوسائل والحيل ، ويستمرى حياة الخديعة والشعوذة والفواية إلى الذروة ، ويشير حوله بعد حين نفس الشكوك والريب التى يثيرها أينا حل ؛ وإذ يشعر بأن وسائله وحيله ومظاهره كلها قد نفقت ، وأن الجوبتجهم من حوله ، يهتزم الرحيل والنقلة . وهكذا غادر كازانوقا لاهى كما غادر باريس من قبل مثقلاً بالريب والفضائح ، وهبط إلى لندن فى خريف سنة ١٧٦٣ تحذوه آمال وأمانى أخرى

محمد عبد الله عنانه

( للبحث بقية )

( النقل ممنوع )

سنة ١٧٥٧ يبحث عن طالمة كرة أخرى ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين يمدد بعزب حسن ، وكان صديقه الأب دى برنى سفير فرنسا السابق فى البندقية قد طاد الى فرنسا ، وتولى وزارة الخارجية ، فتقدم اليه يطلب عونه ، فأوصى به بعض كبراء الدولة ؛ وكانت المشككة للمالية أم ما يشغل فرنسا يومئذ وفى سبيل حلها تقدم أعرب المشاريع والاقتراحات . وكان من بين المشاريع التى وضعت لاجماد بعض المال أن تصدر الدولة « أوراق يانصيب » يفعلى إيرادها نفقات المدرسة الحربية التى أنشئت يومئذ لتخرج ضباط للجيش الفرنسى ؛ وكان يضطلع بالشروع اخوان ايطاليان يدعوان كالدسايجى ، فاتصل كازانوقا بذوى النفوذ والمشرفين على العمل ، وكان يتمتع فى ذلك الميدان ببعض الخبرة ويقدم عن المشروع آراءه وملاحظاته ، فرؤى أن يعين مديراً للمشروع بعزب ضخم وعمولة حسنة ، وصدر بالمشروع قرار وزارى فى أكتوبر سنة ١٧٥٧

وهكذا تبوأ كازانوقا منصباً خطيراً مر بها يحقق له تلك الحياة الناعمة المستقلة التى طالما طمح اليها ، واتخذ له مسكناً نفياً فى ضاحية سان دنى عوج بالنعم والحشم . وأقبل الناس على شراء أوراق اليانصيب الحكومية إقبالاً حسناً ؛ ووقع السحب الأول فى ابريل من العام التالى وأسفر عن نتائج مرضية ؛ ثم وقع صراراً خلال العامين التالين ، وظفرت المدرسة الحربية بكل النفقات اللازمة ؛ وحقق كازانوقا لنفسه ربحاً وقيراً يقال إنه بلغ مائة ألف فى العام ، هذا عدداً ما كان يربحه من أعمال التنجيم والشعوذة التى لم ينقطع عن مزاولتها ؛ وعهد اليه أثناء ذلك ببعض المهام الرسمية السرية فأداها بنجاح ؛ وعهد اليه أيضاً بمهمة مالية فى هولنده فأسفرت عن نتائج مرضية ؛ وهكذا ذاع اسمه وتوطد مركزه ، وزاد ثراؤه ، وشعر لأول مرة فى حياته بأنه غدا الرجل الذى طمح أن يندو ، ينثر الذهب من حوله بلا حساب ، ويحقق لنفسه أعز الرغبات والأهواء والأمانى

واتخذ كازانوقا لنفسه خارج باريس مسكناً آخر غير مسكنه الباريسى أنيقاً وثيراً به حاشية باهرة ، وخيل مطهمة ، وهناك كان يقضى معظم أوقاته فى متاع ومرح ، يطلق لنفسه عنان الهوى والحب ، ويستمرى غزواته النسائية بلا انقطاع ؛ وكان كازانوقا